نظرة في تاريخ كربلاء والمشهد الحسيني

سلمان هادي آل طعمة ـ كربلاء

تشكل مدينة كربلاء حصناً حصيناً وملاذاً آمناً وقلعة شامخة من قلاع العروبة والإسلام والعلم والأدب، لما لها من أهمية وقدسية ومكانة عظمى في نفوس العرب والمسلمين. تخرج منها فطاحل علماء الفقه واللغة والتاريخ والفلسفة والأدب والعلوم الأخرى. وأنى ذكرت كربلاء تبادرت إلى الذهن قيم الاستشهاد والبطولة التي جسّدها الإمام الحسين بن علي (ع) وصحبه الأبرار، دفاعاً عن الحق والعدل والمعاني الخيّرة والأصالة الإسلامية والعربية، وظل ذكرها مرتبطاً بالقيم العليا، خالداً في سفر الزمان.

ويمكننا القول إن مدينة كربلاء هي اليوم من أهم المدن التاريخية والدينية التي تقع جنوبي غربي بغداد لمسافة ١٠٥ كلم، وترتبط بألوية بغداد والحلة والنجف الأشرف بطرق عديدة، تحيط بها البساتين ويسقيها نهر الحسينية المتفرّع من الفرات.

إن ظهور كربلاء كمدينة ذات شأن كان على أيدي العرب الذين سكنوا هذه البقعة منذ القدم، ومما يدل على قدم كربلاء ووجودها قبل الفتح الإسلامي ما ذكره الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي سعيد التيميمي: "أقبلنا مع علي (ع) من صفين، فنزلنا كربلاء، فلما انتصف النهار، عطش القوم"، ويدلنا هذا القول إن التاريخ الذي مرّ به الإمام علي (ع) فيها هو سنة ٤٠هـ.

ولم يكن لكربلاء شأن يذكر قبل استشهاد الحسين (ع)، ويكاد يبتدئ تاريخ المدينة بمقتل الإمام الحسين (ع) في سنة ٦١هـ، حيث صارت لها مكانة دينية، وأصبحت تقترن بهذه المكانة مدى ذكرها في التاريخ الإسلامي، وأخذت القلوب تفد إليها قبل الأجسام، وتبذل في سبيلها الأموال والأرواح.

وقد حرر العرب المسلمون كربلاء والمناطق المحيطة بها عند زحفهم على المدائن، وبعد انتصارهم على جيوش الفرس في معركة القادسية، اتخذها سعد بن أبي وقاص معسكراً لجيوش المسلمين على تخوم الجزيرة العربية، ثم تحولوا عنها إلى الكوفة، على أن توزع أراضي كربلاء على المسلمين لإدارتها وزرعها وإحياء أراضيها. ويروى أن يوم مجيء الحسين ابن علي (ع) وصحبه الأبرار في يوم الخميس الثاني من شهر محرم الحرام عام ٦١هـ، حط رحاله فيها وقال: "**هي، هي والله محط رحالنا، ومناخ ركابنا، ومسفك دمائنا**"، ثم أمر بأثقاله فحطت وبسرادقه فأقيمت، ثم كان من أمره، فأخذت لفظة كربلاء بعد معركة الطف تعني في نفوس العرب والمسلمين التضحية في سبيل المبادئ والثورة على الباطل.

أسـماء كـربـلاء

إن كل ما ذهب إليه اللغويون في إرجاع اسم كربلاء إلى مكوناتها من تسميات قرى قديمة لا تمت بصلة لموقع كربلاء الحالية، أي المرقدين الشريفين والدور المحيطة بهما، وكذلك السور المحيط، وأرى أن كربلاء الحالية نشأت بعد عام ٦١ للهجرة، وبالإمكان القول بأن الحسين بن علي (ع) يعتبر واضع الحجر الأساس لهذه المدينة، التي تشرفت باقترانها باسمه (مدينة الحسين (ع))، وكل إرجاع إلى ما قبل ذلك هراء ومحاولة للتقليل من قدسيتها، حيث أن كل مَن سرد وقائع يوم عاشوراء، لم يذكر ما يشير إلى وجود أحد من غير طرفي النزاع، مما يدل على أن المكان كان خالياً تماماً من أي سكن أو ساكن، وإنما سكنها الناس بعد مقتل الحسين (ع) حباً في مجاورة قبر سيد الشهداء، وخدمة لمشهده الشريف وزوّاره من المسلمين المؤمنين العارفين بجوهر الدين، الذين شايعوا الأئمة الهداة المهديين (ع). ونحن نكاد لا نعرف شيئاً عن تاريخها قبل الفتح الإسلامي، سوى أنها كانت قرية صغيرة تجاورها مزارع وضياع، وعامة سكانها أهل حراثة وزراعة. وهي من أمهات مدن طسج النهرين الواقعة على نهر بالاكوباس (أي الفرات القديم) وعلى أرضها معبد، وكانت لها حضارة مبنية على أسس عربية، حيث سكنها قسم من القبائل العربية كبني أسد وبني تميم، وسبق الكلدانيون العرب باستيطانها. وكانت الديانة الشائعة عندهم هي النصرانية. ولما فتح المسلمون العراق على عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٤هـ، بقيادة سعد بن أبي وقاص الذي أمر خالد بن عرفطة بفتح طسج النهرين، ففتحه، واتخذت كربلاء مأوى لجيوش المسلمين.

ولما رحل المسلمون عنها، قل شأنها، وكادت تعفو رسومها ويخفى ذكرها، وما زالت كذلك إلى أن وطأتها أقدام بني هاشم عام ٦١هـ، يتقدمهم سيدهم وإمامهم أبو عبد الله الحسين (ع) وأخوه أبو الفضل العباس (ع)، فخيموا في الموقع المعروف بالمخيم، وقاتلوا جيوش الشرك لإظهار الحق، فقتلوا في تربة أزكاها نجيعهم، وطيّبتها أجسامهم الطاهرة في واقعة الطف الشهيرة.

فكربلاء المدينة المقدسة هي أم لقرى عديدة تقع بين بادية الفرات وشاطئ الفوات، سكنها قوم من النصارى والدهاقين.

لقد استطاع المؤرخون والباحثون التوصل إلى معرفة لفظة كربلاء من نحت الكلمة وتحليلها اللغوي، فقيل إنها منحوتة من كلمة "كوربابل" العربية، وهي عبارة عن مجموعة قرى بابلية قديمة منها (نينوى)، ومنها (الغاضرية)، وهي الأراضي التي كانت مزرعة لبني أسد، ومنها (كربله) بتفخيم اللام، ومنها (عقر بابل) ثم (النواويس)، وكانت مقبرة عامة للنصارى قبل الفتح الإسلامي. وقد عبّر عنها الإمام الحسين (ع) عندما عزم المسير إلى الكوفة بقوله: "**كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء**"، ومنها (الطف)، ومنها (الحير) أو (الحائر)، وهي الآن الأراضي

المنخفضة التي تضم موقع قبر الحسين (ع) إلى رواق بقعته الشريفة، ثم توسع معنى الحائر فصار يطلق على البناء الذي يحيط بالقبر المطهر.

ولأرض كربلاء أسماء كثيرة منها في كتب الأخبار والآثار ستة عشر اسماً منها كربلاء، ونينوى، والغاضرية، وشاطئ الفرات، والطف، وقبة الإسلام، والبقعة المباركة، وموضع الابتلاء، ومحل الوفاء، والحائر الحسيني، وما إلى ذلك.

تاريخ مرقد الحسين (ع)

تتحدث المصادر أن تاريخ عمارة المشهد الحسيني يبدأ منذ حادثة مقتل الإمام الحسين بن علي (ع) وصحبه الأبرار، حيث قامت قبيلة بني أسد بدفن جثثهم الطاهرة، ووضعوا على القبر الرسوم التي لا تبلى، وفي يوم ٢٠ صفر من عام ٦١هـ ورد كربلاء جابر بن عبد الله الأنصاري ومعه جماعة من الهاشميين لزيارة قبر الحسين الشريف، واجتمع فيها مع الإمام علي بن الحسين (ع) وأهل بيته، وأصبح هذا اليوم من الأيام المشهودة التي يتوافد إليها الزوار على مدينة أبي الشهداء كل عام، وهي التي تعرف بزيارة الأربعين لمرور أربعين يوماً على استشهاد الإمام الحسين (ع).

في سنة ٦٥هـ، على عهد عبد الملك ابن مروان قصد كربلاء جماعة من التوابين بقيادة رئيسهم سليمان بن صرد الخزاعي، يطالبون بثارات الحسين (ع)، فازدحموا حول القبر، ولم يكن إذ ذاك ما يظلل القبر، فكان ظاهراً ومعروفاً، ومكثوا يوماً وليلة ثم رحلوا عنها إلى عين الوردة، فقاتلوا الأمويين وقتل رئيسهم الخزاعي وتشتت شملهم.

نهض المختار بن عبيدة الثقفي في شعبان ٦٥هـ، مطالباً بثأر الحسين (ع)، داعياً لمحمد بن الحنفية ابن الإمام علي (ع)، فبنى مشهد الحسين (ع)، وشيّد له قبة من الآجر والجص، وجعل له بابين شرقياً وغربياً، وخصص له مسجداً ليتخذ كمأوى للزائرين والوافدين لزيارة قبر الحسين (ع) في الحائر.

أما تشييد العمارة الثانية، فقد تمّت على يد موسى بن عباس الهاشمي الذي بنى سقيفة على قبر الحسين (ع) بعد أن كشف عن القبر، ورأى جسد الحسين (ع) على قطعة من حصير، فاتخذ العلويون والصحابة المجاورون للقبر، دوراً لسكناهم في كربلاء، حتى جاء دور المتوكل العباسي الذي هدم قبر الحسين (ع) وحرثه.

استولى المنتصر العباسي على عرش الخلافة بعد قتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧هـ، فأمر ببناء وتشييد قبة على قبر الحسين (ع)، وركز عليها (ميلاً) لكي يرشد الزائرين إلى موضع القبر، وفرّق الخيرات على العلويين، فهاجر إلى كربلاء حينذاك جماعة منهم أولاد الإمام موسى بن جعفر (ع)، كان في مقدمتهم السيد إبراهيم المجاب بن محمد العابد وذرية محمد الأفطس حفيد الحسين الأصغر ابن الإمام السجاد، وأولاد عيسى بن زيد الشهيد بن علي السجاد، واستوطنوا فيها. وقد بقي البناء مشيّداً حتى سنة ٢٧٠هـ على عهد الخليفة المعتضد.

ثم تولى بناء قبر الحسين (ع) كل من الأخوين الداعي الكبير حسن بن زيد العلـوي ملك طبرستان وديلم، فباشر بتشييد حرم الحسين (ع) واتخذ حوله مسجداً، ولم يمهلـه الأجل لإتمامه، فقد وافاه الأجل سنة ٢٧١هـ، وجاء بعـده أخـوه الملقـب بـالداعي الصغير محمد بن زيد الذي ملك طبرستان وديلم وخراسان، فبنى حوله مسجداً، وسوّر الحائر سنة ٢٨٣هـ، وقد بقي البناء قائماً حتى سنة ٣٦٩هـ.

ثم تولى تشييد حرم الحسين خسرو الملقب بعضد الدولـة، وبنـى حولـه أروقـة متناسقة، وشيّد على القبر قبة على شكل دائرة، واتخذ حوله مسجداً، وبنى دوراً للسكنى وعمّر الأسواق، وأحاطها بسور، وبنى عمران بن شاهين أمير البطائح رواقاً ومسجداً متصلاً بالمشهد المطهر، وذلك في سنة ٣٦٧هـ، وقد أطنب ابن الأثير في تاريخه في مآثر عضد الدولة وما قدم من الخدمات الجليلة للحائر، ولا تنكر أعمالـه ومنجزاتـه العظيمة، فقد ازدهرت كربلاء بعد ذلك ازدهاراً واسعاً، وتقدمـت معالمـها الدينيـة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فاتسعت تجارتها، واخضلت زراعتها، وأينعـت علومها وآدابها، فدبّت في جسمها روح النشاط، فتخرّج منها علماء فطاحل، وشـعراء مجيدون، وتفوقت في مركزها الديني المرموق، وإلـى ذلـك أشـار السـماوي فـي أرجوزته:

ثـم تولـى ابـن بويـه العضـد	فـاخضر عـود فيـه كـاد يخضـد
بنـى لـه القبـة ذات الأروقـة	محيطـة علـى الضريـح محدقـة
وزيـن الضريـح بالديبـاج	ومـا عـلا دائـره بسـاج
وشعشـع القبـة والرواقـا	وعمّـر البيـوت والأسـواقا
وعصـم البلـدة بالأسـوار	فحكـت المعصـم بالسـوار
وسـاق للطـف مياهـاً جاريـة	وامتـاز للضـوء وقوفـاً جاريـة

لقد كانت كربلاء في أيام عضد الدولة في غاية الجلال والحسن، فقد بنـى حولـها أسواقاً وابتاع ضياعاً ودوراً ومخازن ودكاكين، أوقفها على المدارس الدينية، وكـان يصرف عليها في كل عام لنفقات تلك المدارس مبالغ طائلة، ولهذه المدارس أوقـاف عظيمة وعقارات محبّسة تتصيّر إلى الفقهاء والمدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم به أودهم.

بيد أن هذه العمارة احترقت سنة ٤٠٧هـ، وهناك من يرى أن القادر بالله العباسـي كان وراء هذا الحريق. وظل القبر على هذا الحال، حتى قام أبو محمد الرامـهرمزي الحسن بن الفضل بتجديد سور الحائر الخارجي، وبناء عمارة جديدة علـى الضريـح الشريف سنة ٤١٤هـ، وفي سنة ٤٧٩هـ أمر عماد الدين سرهنك ساوتكين بحفر نهر العلقمي فأحيا به الأراضي الزراعية. وبقيت الحال على ما هي عليه دون حدث مـهم يذكر، حتى سلب الخليفة العباسي المسترشد بالله ما فيه من الأموال والمجوهرات سـنة

٥٢٦هـ، وفرق قسماً على جيشه، وفي سنة ٦٢٠هـ أمر الخليفة الناصر لدين الله العباسي وزيره مؤيد الدين بن العلقمي أن يجدد عمارة الضريح.

وهكذا ظلت المدينة موضع اهتمام، فبلغت دُورها في القرن السابع على تقدير ابن الكازروني ألف دار، على أن القرن الثامن الهجري شهد حدثاً مهماً له تأثيره في حياة المدينة، إذ أمر غازان الأيلخاني في سنة ٧٠٢هـ بشق نهر من الفرات إلى كربلاء، هو الذي عرف فيما بعد بالحسينية. وفي هذا القرن قام السلطان أويس الجلائري في سنة ٧٦٧هـ بتجديد عمارة الحائر، وأكمل ولداه عمارة أبيهما، إذ بنى أحمد منارتين زينهما بالذهب،

وفي منتصف القرن التاسع قام علي بن محمد بن فلاح المشعشعي بنهب مشهد الحسين (ع) وقتل بعض أهله.

وفي القرن العاشر ورد عن الشاه إسماعيل الصفوي أنه جدد عمارة الضريح وأصلحها، كما أصلح النهر الذي أجراه ابن العلقمي من قبله، كما ورد عن سليمان القانوني الخليفة العثماني أنه أنقذ مدينة كربلاء من الغرق بإنشاء سدة عرفت فيما بعد باسمه، إذ كان العامة يدعونها بـ "روف السليمانية"، كما أمر بإصلاح نهر الحسينية.

وهكذا استمر البناء في الحائر الشريف من قبل معظم ملوك الصفويين.

وفي سنة ٩٨٣هـ جدد علي باشا والي بغداد الملقب بـ "وند زاده" قبة الحسين (ع).

وفي سنة ١٠٣٢هـ بنى الشاه عباس شباكاً من النحاس على الصندوق، وزيّن القبة بحجارة الكاشاني.

وفي سنة ١٠٤٨هـ زار السلطان مراد الرابع العثماني كربلاء، وأمر بتبييض القبة من الخارج بالجص.

وفي سنة ١١٥٥هـ، زار السلطان نادر شاه كربلاء، وأمر بتزيين الأبنية، وأهدى الهدايا النفيسة إلى خزانة الروضة.

وأمر الشاه محمد القاجاري سنة ١٢١١هـ بتذهيب القبة، فكسيت بالذهب.

وفي سنة ١٢١٦هـ، تعرضت كربلاء لغارات من مجموعات من الحجاز، فهدموا ونهبوا كل ما في الروضة الحسينية من النفائس، وعاثوا في المدينة فساداً، وظلت كربلاء دار خراب حتى زارها أحد ملوك الهند، فأعاد عمارة الأسواق وبعض البيوت، وبنى لها سوراً ظل قائماً حتى سنة ١٢٥٨هـ، حيث هدمه والي العراق العثماني نجيب باشا.

وها هي كربلاء اليوم، مدينة كبيرة عامرة ببنيانها وسكانها، تهوي إليها كل يوم أفئدة المؤمنين من كل أقطار الأرض، ويفد إليها كل عام ملايين الزوار، يطالعون فيها مستودع أنوار النبوّة والإمامة الحقة، المتمثلة بسيد الشهداء الحسين (ع)، ويجدّد فيها عند الإمام (ع) وصحبه الميامين، عهد الولاء والوفاء لخط الأنبياء ولرسالة السماء.. فهنيئاً لساكنها وزائرها ومعظّمها، فهو في حرم آمن إن شاء الله.